الاسم والفعل في لغة القرآن الكريم
دراسة دلالية

م. د . سعدون خلف عبد
قسم اللغة العربية / كلية التربية للبنات / جامعة الانبار

حظي القرآن الكريم بالاهتمام الكبير من لدن العلماء في القديم والحديث ، بما لم يحظ به كتاب على وجه الأرض ، من تفسير لآياته و توضيح لكلماته والوقوف عند غريبه ومتشابهه، وبيان مكيّه ومدنيّه ، ومعرفة تشريعه ، وإعجام حروفه ، والخوض في مناحي إعجازه وأسراره ، إلى غير ذلك من الجوانب . فهو الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه ولا يُخلق على كثرة الرد .

وقد افتتن بالقرآن فصحاء العرب ، فوقفوا أمامه مبهورين ، لذا وصفوه بشتى الأوصاف الخارجة عن نطاق قدرة البشر ، فتحداهم أن يأتوا بحديث مثله (١) ، أو بعشر سور مثله مفتريات (٢) ، أو بواحدة من مثله (٣) فعجزوا ، عندها أقام عليهم الحجة ، وقال في ذلك كلمة الفصل : ﴿قل لئن اجتمعت الأنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (٤)

إذن، فما السرّ في هذا السِّفْر القادم من السماء ؟ لقد حام حوله العلماء ونظروا فيه ، فألفوه وحدة متكاملة منسوجة نسجاً فنياً عجيباً ، وضعت فيه كل سورة بل كل آية بل كل لفظة بل كل حرف وضعاً فنياً مقصوداً ، فهو كما قال عنه الفخر الرازي : " كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض ، " (٥) بل هو كالآية الواحدة كما قال (٦) .

وإنك لتجد كل لفظة وضعت في مكانها المناسب ، لا تستطيع أن تنزعها من مكانها وتضعها في مكان آخر ، فقد يؤثر القرآن الكريم لفظة على أخرى أو يقدمها أو يؤخرها ،كل ذلك لغرض محسوب له حسابه .

وفي ذلك قال الجاحظ : " و القرآن الكريم استعمل أصفى الألفاظ جرساً في هذه اللغة ، وأدقها تعبيراً، وأحلاها نغماً، وأورد كل لفظة في مكانها المناسب ببراعة مذهلة وفائقة ، والتزم الدقة في مراعاة دلالة الألفاظ ، وإيرادها بطريقة تعجز عنها الخلائق . " (٧) ويدركها من كان له حسّ في الفصاحة ، ولا أدلّ على ذلك مما رواه أبو حيان النحوي من " أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءاً بما كسبا نكالاً من الله ﴾ (٨) ، وختمها بـ (والله غفور رحيم) ، فقال الأعرابي : ما هذا كلام فصيح ، فقيل له : ليست التلاوة كذلك، وإنما هي : ﴿والله عزيز حكيم ﴾ فقال الأعرابي : بخٍ بخٍ ، عزّ ، فحكم ، فقطع " (٩) .

والقرآن الكريم يستعمل حتى الكلمات الغريبة أحسن استعمال ، ويضعها في المكان اللائق بها ، بحيث لا تستطيع لفظة أخرى أن تسد مسدها ، وذلك من مثل لفظة (ضيزى) في قوله تعالى : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ (١٠) .

فهذه الكلمة "هي أغرب كلمة في اللغة ، ولم تستعمل في لسان العرب لثقلها وعدم حسنها عندهم إلا نادراً ، بل قد لا تجد لها استعمالاً في شعرهم مطلقاً ، ومع هذا جاءت في القرآن الكريم، وكان لها ـــ مع موضعها ـــ من الحسن ما لا تسد مسدها لفظة أخرى ، وإن حسنها يأتي بسبب وشيجتها وانسجامها في موضعها) " (١١)مع المعنى المراد.

وقد أطال الرافعي في بيان حسنها بقوله : "ولحسن هذه الكلمة في هذا الموضع عدة اعتبارات :

إن السورة التي وردت فيها هذه الكلمة قد جاءت ألفية الفواصل كلها ، فجاءت كلمة (ضيزى) ذات نغم صوتي ملتئم مع فواصل الآي الأخرى ، ولو وضع مكانها (جائرة)– وهي قسيمتها في الدلالة – لجارت على الموضع، وفاتت المناسبة وحسن الجوار، فجيء بها (أي ضيزى) لذلك الالتئام، والتناسق الصوتي الذي لا يخفى أثره .

إنها جاءت معلِّقة على سلوك معيب، حيث جعلوا لله الإناث ــ سبحانه ــ ولهم الذكور، مع الإصرار على قتلهم البنات.

إنّ الآية الأولى : ﴿ أَلكم الذكر وله الأنثى ﴾ اشتملت على استفهام إنكاري ، والآية الثانية ﴿تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ ، اشتملت على التهكم ، وهما معنيان متناسبان ، أولهما كالمقدمة لثانيهما ، وهذه الكلمة الغريبة (ضيزى) ، أليق ما تكون دلالة على التهكم ، لأنها وصفت حالة المتهكم في إنكاره ، من إمالة الرأس واليد بهذين المدين [الياء والألف] إلى الأسفل والأعلى ، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية "(١٢) . " فغرابة اللفظ في نفسه يعبر عن غرابة القسمة ، وينسجم مع المعنى الذي يؤديه على أتم وجه ، وأكثره وقعاً في النفس ، مع الالتئام مع السياق والإيقاع " (١٣) .

وعلى هذا، فإن من مجالات البحث في كتاب الله تعالى لغته ، إذ كانت موضع عناية الدارسين ومعقد اهتمامهم، لما فيها من أسرار دقيقة وكنوز ثمينة، لم يوقف على مثلها في أي نص، مهما سما إلى أعلى مراتب الإبداع .

والعلماء عندما فسروا كتاب الله سبحانه،لمسوا دقة هذه الألفاظ وعذوبتها ، فراحوا يعللون اختيارها وإيثارها على غيرها بحسهم اللغوي ،وبثقافتهم الواسعة، ساعين إلى إظهار جمال التعبير القرآني في استعماله تلك الألفاظ.

لذا فإن هذا البحث يحاول أن يسلط الضوء على شيء من الإعجاز القرآني في هذا الميدان، ويحاول وضع اليد على السر في عدول التعبير القرآني عن لفظ إلى آخر، في مسألة إستعماله الأسم والفعل، وإيثار أحدهما على الآخر، ودلالة ذلك ، لأنه " لما كان المتكلم أحكم الحاكمين ، فلا بد لهذه التغييرات من حكم وفوائد ، فإن أدركنا تلك الحكم فقد فزنا بالكمال ، وإن عجزنا أحلنا القصور على عقولنا لا على كلام الحكيم".(١٤) ولعل من يأتي بعدنا ، يستطيع أن يضع يده على ذلك السر ، أو على شيء منه .

ذكر اللغويون وأهل البيان أن الفعل يدل على التجدد والحدوث ، وأن الاسم يدل على الاستقرار والثبوت ، ولا يحسن وضع أحدهما موضع الأخر .(١٥) " فإذا قلت : (خالد مجتهد) ، أفاد ثبات الاجتهاد لخالد ، في حين أنك إذا قلت : (يجتهد خالد) ، أفاد حدوث الاجتهاد له بعد أن لم يكن ، وكذا إذا قلت : (هو حافظ) أو (يحفظ) ، فـ (حافظ) ، يدل على الثبوت ، و (يحفظ) ، يدل على الحدوث والتجدد ، ونحوه : هو خطيب أو يخطب،وهو كريم، أو هو يكرم ، وهو جواد أو يجود ، فإن (خطيباً وكريماً وجواداً) ، تفيد ثبوت الصفة في صاحبها ، وإنّ صاحبها متصف بها على سبيل الدوام . في حين أنّ (يحفظ أو يخطب أو يكرم أو يجود) ، تدل على التجدد والحدوث ، وسر ذلك أن الفعل مقيد بالزمن ، فالفعل الماضي مقيد بالزمن الماضي ، والمضارع مقيد بزمن الحال أو الاستقبال في الغالب ، في حين أن الاسم غير مقيد بزمن من الأزمنة ، فهو أشمل وأعم وأثبت " (١٦)

وفي هذا قال عبد القاهر الجرجاني : " إنّ موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء ، وأما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء ، فإذا قلت : زيد منطلق ، فقد أثبت الانطلاق فعلاً له ، من غير أن تجعله يتجدد أو يحدث منه شيئاً فشيئاً ، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك : زيد طويل وعمرو قصير ، فكما لا يقصد ههنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث ،

بل توجبهما وتثبتهما فقط ، وتقضي بوجودهما على الإطلاق ، كذلك لا تتعرض في قولك : زيد منطلق لأكثر من إثباته لزيد . وأما الفعل فإنه يقصد فيه إلى ذلك ، فإذا قلت : زيد هو ذا ينطلق ، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءاً فجزءاً ، وجعلته يزاوله ويزجّيه ... وليس ذلك إلاّ لأن الفعل يقتضي مزاولة وتجدد الصفة في الوقت ، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل، ومعنى يحدث شيئاً فشيئاً . " (١٧)

فمثلاً قوله تعالى : ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ (١٨) ، فلما كان الموت سكوناً وجموداً، لذا لاءمه الاسم (ميتون) ، الدال على الثبوت ، ولما كان البعث حركة وحياة ، ناسبه الفعل (تبعثون) ، الدال على التجدد والحدوث (١٩) .

لما كان الاسم يدل على الثبوت لذا فأن العربي قد يأتي بالصيغة الاسمية للتعبير عن أمر لم يحدث بعد ، دلالة على أن الأمر بمنزلة الحاصل الثابت المنتهى منه ، وذلك نحو قولك لشخص : أترى أنّ زيداً ينجح ؟ فيقول لك : هو ناجح ، وذلك لوثوقه به ، وكأن الأمر تم وحصل وإن لم يحدث فعلاً .

ومن هذا الضرب قوله تعالى: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ (٢٠) ولم يقل (سأجعل)، ولكن ذكره بصيغة اسم الفاعل ، للدلالة على أن الأمر حاصل لا محالة ، فكأنه تم وثبت واستقر ، ومثل ذلك قوله عز وجل في قوم نوح– عليه السلام–: ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ .(٢١) ولم يقل : (إنّهم سيغرقون) ، و هذا هو مقتضى المستقبل، ولكنه تعالى أخرجه مخرج الأمر الحاصل، لأن الأمر استقر وثبت، وحُكم عليهم بذلك . ومثله قوله تعالى في قوم لوط– عليه السلام–: ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴾ (٢٢) ولم يقولوا: (سنهلك)، فذكروها بالصيغة الاسمية، للدلالة على أن الأمر انتهى واستقر وثبت (٢٣)

"وهذا الفرق الدلالي بين الاسم والفعل ، يهدينا إلى معرفة سر العدول عن الاسم إلى الفعل أو العكس في السياق القرآني ، فهو عدول يقتضيه سياق الحال ، ويكشف عن دلالات بلاغية مقصودة ، لا كما ذهب إليه بعض النحاة ، من تأويل الفعل بمعنى الاسم أو العكس ، حتى يصح عطف أحدهما على الآخر " . (٢٤)

فقد ذكر الرضي أنه " يعطف الاسم على الفعل والعكس، إذا كان في الاسم معنى الفعل ، قال تعالى : ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً ﴾ (٢٥).... أي فلق الإصباح ، وكذا قوله تعالى ﴿ صافات ويقبضن﴾(٢٦) أي "يصففن ويقبضن ." (٢٧)

وتأويل الاسم بمعنى الفعل أو العكس، ليصح العطف بينهما تكلف واضح، دعا إليه الاهتمام بالشكل على حساب المضمون ودلالة اللفظ ، ولو كان الأمر كما ذكر ، لما كان للعدول عن أحدهما إلى الأخر معنى يذكر ،(٢٨) لأن الحكيم لا يغاير في كلامه إلا لفائدة مقصودة (٢٩) ، فهو قول من لا يقف على أسرار البيان ودقائق المعاني في التعبير لمعرفة الفرق بينهما (٣٠) ، لأن "كل عدول من تعبير إلى تعبير لا بد من أن يصحبه عدول من معنى إلى معنى ، فالأوجه التعبيرية المتعددة إنما هي صور لأوجه معنوية متعددة . " (٣١)

والملاحظ أنّ السمة التعبيرية للقرآن الكريم في استعماله للاسم والفعل، أنه يستعملهما استعمالاً مناسباً مع وقوع الحدث، فإذا كان مما يتكرر حدوثه ويتجدد، استعمله بالصورة الفعلية، وإذا لم يكن كذلك استعمله بالصورة الاسمية.

فمن ذلك استعماله لفعلي (الإنفاق والاستغفار) ، فإنهما وردا بالصورة الفعلية ،لأنهما يتكرران ويحدثان باستمرار، (٣٢) ولم يردا بالصورة الاسمية إلا في آية واحدة ، هي قوله تعالى : ﴿الصابرين والصادقين والقانتين

والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾ . (٣٣) والسر في ذلك ، أنّ هذه الآية الكريمة وردت في سياق أوصاف المؤمنين الدالة على الثبات والاستقرار فيهم . (٣٤)

فمما ورد بالصيغة الفعلية للإنفاق قوله سبحانه : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٣٥) ، فاستعمل الفعل (ينفقون) الدال على التجدد والحدوث ، لأنه مناسب للإنفاق الذي يتجدد ويحدث أيضاً . ونحوه قوله عز وجل : ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ ، (٣٦) وقوله تعالى : ﴿ والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ . (٣٧)

وكذلك لما كان الاستغفار يحدث ويتجدد، عبر عنه القرآن بالصيغة الفعلية كثيراً، شأن الأنفاق ، مثل قوله تعالى : ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ (٣٨) ، وقوله سبحانه : ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ (٣٩) وقوله تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا﴾ (٤٠) ، ومن ذلك أيضاً (التسبيح) ، فإنه ورد بالصيغة الفعلية كثيراً شأن الأنفاق والاستغفار للسبب نفسه ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ ويسبحونه وله يسجدون ﴾ (٤١) وقوله عز وجل : ﴿ تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ (٤٢) ، وقوله تعالى: ﴿سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض ﴾ (٤٣) وغير ذلك كثير . (٤٤)

ولم يرد التسبيح بالصيغة الاسمية إلا في آيتين ، إحداهما في وصف نبي الله يونس- عليه السلام- في قوله عز وجل :﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ (٤٥) ، بمعنى: أن هذا هو الوصف الثابت له، فنجا لأنه من أصحاب هذا الوصف . وفي هذا إشارة إلى أن مداومة التسبيح تخلص صاحبها من الكروب و المكاره ، وإن يونس –عليه السلام – إنما نجا من شدته، بمداومته التسبيح (٤٦).

والآية الثانية في صفة الملائكة –عليهم السلام –في قوله تعالى : ﴿ و إنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون ﴾ (٤٧) ، أي أن هذه هي صفتهم الثابتة .

ومما ورد بالصيغة الاسمية كثيراً استعمال القرآن للإيمان ، في أوصاف المؤمنين الثابتة ، وذلك لأن الإيمان له حقيقة ثابتة تقوم بالقلب ، وليس كالإنفاق يحدث وينقطع (٤٨) ، قال تعالى: ﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴾ (٤٩) ، وقوله ﴿ و كان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ (٥٠) ، وقوله تعالى أيضاً ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾.(٥١)

وفي هذه المسألة قال الزركشي: " ومن هذا يعرف لِمَ قيل : (الذين ينفقون)، ولم يقل (المنفقين) في غير موضع ، وقيل كثيراً : المؤمنون والمتقون.؟ لأن حقيقة النفقة أمر فعلي شأنه الانقطاع والتجدد بخلاف الإيمان ، فإن له حقيقة تقوم بالقلب يدوم مقتضاها وإن غُفِل عنها ، وكذلك التقوى والإسلام والصبر و الشكر والهدى والضلال والعمى والبصر ، فمعناها أو معنى وصف الجارحة . كل هذه لها مسميات حقيقية أو مجازية تستمر وآثار تتجدد وتنقطع ، فجاءت بالاستعمالين ، إلا أنّ لكل محل ما يليق به ، فحيث يراد تجدد حقائقها أو آثارها فالأفعال ، وحيث يراد الاتصاف بها فالاسماء " .(٥٢)

ومن أمثلة التعبير الفني في هذا الميدان، ما ورد في القرآن الكريم ، من إيثار الفعل على اسم الفاعل في قوله سبحانه وتعالى :﴿ أَوَ لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن ﴾ (٥٣) ، فالأصل السياقي في هذه الآية الكريمة هو اسم الفاعل (صافات) ، والسياق يقتضي المشاكلة في التعبير ، بأن يماثل بينهما فيقول : (

صافات وقابضات)، إلا أنّ السياق خرج عما كان يتوقعه المتلقي ، فآثر الفعلَ على الاسم،ليعطي دلالة جديدة ، ما كان للاسم أن يفي بها لو استمر السياق على سبيل المشاكلة بين الاسمين دون مغايرة بينهما ، فجاء التعبير المعجز (صافات ويقبضن) .

وهنا يوظف التعبير القرآني الفرق الدلالي بين الاسم والفعل أحسن توظيف ، لكي يتوافق المقال مع مقتضى الحال الملموس الذي عليه واقع الطير المشاهد ، وذلك لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة ، والقبض أمر طارىء ، فكان الصف بالصيغة الاسمية للدلالة على الثبوت ، والقبض بالصيغة الفعلية للدلالة على التجدد والحدوث ، قال الزمخشري : " فأن قلتَ لِمَ قيل : (ويقبضْنَ) ولم يقل : (وقابضات) ؟ قلتُ : لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة ، لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء ، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها ، وأما القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرك ، فجاء بما هو طارىء غير أصل بلفظ الفعل ، على معنى: إنهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد أخرى كما يكون من السابح . " (٥٤)

ويرد مثل هذا الإيثار أيضاً للدلالة على المفارقة بين ما هو موقوت وبين ما هو دائم، وذلك في إيثار اسم الفاعل على الفعل في قوله عز وجل : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ (٥٥) ، إذ إن ظاهر السياق يقتضي أن يقول :(وما كان الله ليعذبهم وهم يستغفرون) ، على سبيل المشاكلة، ولكن الحكيم تعالى غاير بين التعبيرين لحكمة، بأن آثر اسم الفاعل (معذبهم)على الفعل (يعذبهم) ، وذلك "أنه جعل الاستغفار مانعاً ثابتاً من العذاب، بخلاف بقاء الرسول – صلى الله عليه وسلم – بينهم ، فإنه – أي رفع العذاب – موقوت ببقائه بينهم، فذكر الحالة الثابتة بالصيغة الاسمية ، والحالة الموقوته بالصيغة الفعلية . وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ (٥٦) ، فالظلم من الأسباب الثابتة في إهلاك الأمم، فجاء بالصيغة الاسمية للدلالة على الثبات ، ثم انظر : كيف جاء بالظلم بالصيغة الاسمية أيضاً دون الفعلية ، فقال : (وأهلها ظالمون) ،ولم يقل (يظلمون) ، وذلك معناه أن الظلم كان وصفاً ثابتاً لهم مستقراً فيهم غير طارىء عليهم ، فاستحقوا الهلاك بهذا الوصف السيء . "(٥٧)

ومن اللافت للنظر أيضاً ، أنه عبّر عن استغفارهم بالفعل (يستغفرون)، ولم يقل (وهم مستغفرون) ، ليشير بذلك إلى سعة رحمته تعالى، لأنه يمنع عنهم العذاب منعاً مطلقاً بأي استغفار يحدث منهم، ولو لم يكن وصفاً ثابتاً فيهم ، في حين أنه لا يهلكهم إلا بتحقق حصول الظلم وثبوته ، و كونه وصفاً مستقراً فيهم (٥٨) .

ومن بدائع الفن القرآني المعجز، في باب التعبير بالاسم أو الفعل ، ما ورد في إيثار الجملة الاسمية على الفعلية ، في حكاية ضيف إبراهيم– عليه السلام– في قوله تعالى: ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيمَ بالبشرى قالوا سلاماً قال سلامٌ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ (٥٩) .

فقد فرق التعبير القرآني بين السلامين، فجعل الأول بالنصب (قالوا سلاماً) ، والثاني بالرفع (قال سلامٌ) ، وكان الظاهر أن يردّ عليهم بالنصب أيضاً على سبيل المشاكلة في التعبير ، ولكنه تعالى عدل به إلى الرفع .

والسر في ذلك ، أنّ قوله تعالى :(سلاماً) ،منصوب على المصدر ، أي نسلم سلاماً ، فهو بتقدير فعل ، وقوله (سلام)مرفوع، بتقدير جملة اسمية ، أي : أمري سلام أو سلام عليكم (٦٠) .

والاسم أقوى وأثبت من الفعل كما تقرر ، فقصد عليه السلام بذلك أن يحيّي الملائكة –عليهم السلام– بأحسن من تحيتهم ، لما عُرف عنه من الخُلق الرفيع والكرم العالي ، وذلك جرياً وراء المزيد من الأدب والإكرام (٦١)، المتمثل بقوله جلت حكمته: ﴿وإذا حُييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ (٦٢) .

ونظير هذه الآية الكريمة ما ورد في وصف المنافقين ، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾ (٦٣) . فقد فرق التعبير القرآني المعجز بين قولهم للمؤمنين ، وقولهم لشياطينهم (أصحابهم) ، فقد خاطبوا المؤمنين تُقية بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث (قالوا آمنا) ، وخاطبوا جماعتهم بالجملة الاسمية المؤكدة بـ (إنّ)، الدالة على الثبوت والدوام (إنا معكم)، فلم يقولوا لجماعتهم (لم نؤمن) كما قالوا للمؤمنين (آمنا) . والسر في ذلك، أنهم عندما أرادوا التعبير عن عدم الثبات وعن، حقيقة إيمانهم المزور، جاءوا بالجملة الفعلية (آمنا)، ولما أرادوا التعبير عن حالتهم الثابتة المستقرة فيهم، جاءوا بالجملة الاسمية (إنا معكم)، وذلك لأن التعبير بالاسم أقوى واثبت دلالة من التعبير بالفعل الذي يدل على عدم الثبات .

وفي هذا قال الرازي : "لِمَ كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم أي أصحابهم بالجملة الاسمية محققة بـ (إنّ) ؟

الجواب : ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين ، لأنهم كانوا في ادعاء حدوث الإيمان منهم، لا في ادعاء أنهم في الدرجة الكاملة منه ، إما لأن أنفسهم لا تساعدهم على المبالغة ، لأن القول الصادر عن النفاق والكراهية قلما تحصل معه المبالغة . وإما لعلمهم بأن ادعاء الكمال في الأيمان لا يروج على المسلمين . وأما كلامهم مع إخوانهم، فهم كانوا يقولونه عن الاعتقاد ، وعلموا أن المستمعين يقبلون ذلك منهم، فلا جرم كان التأكيد لائقاً به . "(٦٤)

ومن هذا يظهر لنا الفرق الدلالي بين التعبير بالاسم أو الفعل، وإيثار أحدهما على الآخر بحسب مقتضى الحال.

وارى فيما ذكر كفاية ، لأن القصد هو التمثيل لا الحصر .

وهذه الدقة المحكمة في التعبير القرآني المعجز تتجلى لنا في قوله جلّت حكمته في وصف قرآنه الكريم : ﴿كتاب أُحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير﴾ (٦٥) .

الهوامش

١–ينظر : الطور : (٣٤) .

٢–ينظر : هود : (١٣) .

٣–ينظر : البقرة : (٢٣) ، ويونس : (٢٨) .

٤–الإسراء : (٨٨) .

٥–التفسير الكبير : فخر الدين الرازي ، دار الكتب العلمية ، طهران: (٣٠ / ٢١٤ و ٣١٩) .

٦–م . ن (٣٢ /١٠٤) وينظر : (٣ /١٠٦) .

٧–البيان والتبيين : الجاحظ ، ت: عبد السلام هارون ، دار الفكر ، بيروت ط ١– ١٩٧٤ : (٢٠/١) .

٨–المائدة : (٣٨) .

٩–تفسير البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي ، دار الفكر ، بيروت ، ط ٢ – ١٩٣٨ : (٣ / ٤٨٤).

١٠–النجم : (٢١ – ٢٢) .

١١-علم الإعجاز القرآني بين الفن والتأريخ : د: خليل رجب الكبيسي / مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ط١ - ٢٠٠١ : (١٤٤).

١٢-إعجاز القرآن والبلاغة النبوية / مصطفى صادق الرافعي م : الاستقامة /القاهرة ،١٩٥٦: (٢٦٢) .وينظر : تفسير: في ظلال القرآن : سيد قطب، ط٧ - ١٩٧١ دار إحياء التراث العربي، بيروت :(٦ / ٤٠٨) وينظر : خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : د عبد العظيم المطعني ، مكتبة وهبة، القاهرة ،١٩٩٢: (٢٤٩) .

١٣-علم الإعجاز القرآني : (١٤٠) .

١٤-التفسير الكبير :(٣/ ١٠٦) .

١٥-البرهان في علوم القرآن : الزركشي ، ت :محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت: (٤/ ٦٦) وينظر : الجملة العربية : تأليفها وأقسامها : د : فاضل السامرائي: منشورات المجمع العلمي العراقي ، ١٩٨٨ : (١٨٩).

١٦-معاني الأبنية في العربية : د: فاضل السامرائي ، ط١ - ١٩٨١ ، جامعة بغداد :(٩)،وينظر : الإيضاح في علوم البلاغة : جلال الدين القزويني ، تحقيق جماعة من علماء الأزهر ، م ، السنة المحمدية ، القاهرة: (٨٧/١) .

١٧-دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني : ت:محمود محمد شاكر ،ط٣ - ١٩٩٢ م ، مكتبة الخانجي ، القاهرة :(١٣٣ــ ١٣٤) ، وينظر : نهاية الإيجاز ودراية الإعجاز : فخر الدين الرازي ، ت :محمد بركات حمدي و د: إبراهيم السامرائي ، دار الفكر ، عمان - ١٩٨٥: (٤٠ -٤١) وحاشية الدسوقي على شرح السعد : مصطفى الدسوقي (ضمن شروح التخليص)،مؤسسة دار البيان العربي : بيروت، ط٤ - ١٩٩٢: (٢/ ٣٠).

١٨-المؤمنون : (١٥-١٦).

١٩-أسلوب الألتفات في البلاغة القرآنية : حسن طبل ، ١٩٩٠ : (١٨٠) .

٢٠-البقرة :(٣٠) .

٢١-هود : (٣٧) .

٢٢-العنكبوت : (٣١) .

٢٣-ينظر : التعبير القرآني : د: فاضل السامرائي م ،جامعة الموصل ، العراق ، ١٩٨٨: (٢٤) .

٢٤-الإعجاز البياني في العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم ، د: عبد الله علي الهتاري ،رسالة دكتوراه، مخطوطة ، جامعة اليرموك ، كلية الآداب ، الأردن ، ٢٠٠٤ : (١١٩ ــ ١٢٠) .

٢٥-الأنعام : (٩٦) .

٢٦-الملك : (١٩) .

٢٧-شرح الكافية في النحو : رضي الدين الأستراباذي ، ت : د :عبدالعال سالم مكرم ، عالم الكتب ، القاهرة، ط١ -٢٠٠٠: (٨٩/٣ - ٨٧)

٢٨-ينظر : الإعجاز البياني في العدول النحوي : (١٢٠) .

٢٩-ينظر : التفسير الكبير : (٣/ ١٠٦) .

٣٠-ينظر : الإعجاز البياني في العدول النحوي : (١٢٠) .

٣١-معاني النحو: د: فأضل السامرائي ، م ،التعليم العالي ، الموصل ، العراق ، ١٩٨٩ :(٩/١).

٣٢-ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة: (ن ف ق) و (غ ف ر) .

٣٣-آل عمران : (١٧) .

٣٤-ينظر : التعبير القرآني : (٣٠) .

٣٥-البقرة : (٢٧٤) .

٣٦-آل عمران : (١٣٤) .

٣٧-النساء : (٣٨) .

٣٨-آل عمران : (١٣٥) .

٣٩-النساء : (١١٠) .

٤٠-غافر : (٧) .

٤١-الأعراف : (٢٠٦) .

٤٢-الإسراء : (٤٤) .

٤٣-الحشر : (١) .

٤٤-ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القران الكريم :(س ب ح) .

٤٥-الصافات : (١٤٣- ١٤٤) .

٤٦-ينظر : التعبير القرآني : (٣٢) .

٤٧-الصافات : (١٦٥ - ١٦٦) .

٤٨-ينظر : التعبير القرآني : (٣٠) .

٤٩-طه : (١١٢) .

٥٠-الروم: (٤٧) .

٥١-السجدة : (١٨) .

٥٢-البرهان في علوم القرآن : (٦٧/٤) .

٥٣-الملك : (١٩) .

٥٤-تفسير: الكشاف عن حقائق التنزيل : جار الله الزمخشري، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٧: (٤/ ١٣٨)، وينظر تفسير: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: أبو الثناء الآلوسي ط ،دار الفكر، بيروت، ١٩٨٧: (٢٩ /٢٠) .

٥٥-الأنفال : (٣٣) .

٥٦-القصص : (٥٩) .

٥٧-التعبير القرآني : (٢٧) .

٥٨-م . ن .

٥٩-هود : (٦٩) وينظر الذاريات : (٢٥) .

٦٠-التبيان في إعراب القرآن : أبو البقاء العكبري، ت : على محمد البجاوي، م ، عيسى البابي الحلبي، ١٩٧٥: (٢/ ٧٠٢) .

٦١-ينظر أقوال العلماء في هذه الآية الكريمة: الكشاف: (١/ ٣٨) والتفسير الكبير:(٢٨/ ١٢٨) . وبدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، دار الفكر ، بيروت ،١٩٧٧:(٢/ ١٥٧) والبرهان في علوم القرآن :(٤/ ٧١ – ٧٢) . ومعترك الأقران في إعجاز القرآن:جلال الدين السيوطي ت: على البجاوي، دار الفكر العربي، بيروت:(٣/ ٤٩٦) وروح المعاني:(٢٧/ ١١).

٦٢-النساء : (١٦) .

٦٣-البقرة : (١٤) .

٦٤-التفسير الكبير:(٢/ ٦٩) ، وينظر الكشاف : (١/ ٦٧) ، وروح المعاني:(١٥٦/١) .

٦٥-هود : (١) .